قداس الأحد الرابع من الصوم ــ القديس يوحنا السلمي
في كنيسة مار الياس بطينا
في ١٤ نيسان ٢٠٠٢

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين.

في هذا الإنجيل يا أحبة، دينونة كبيرة لتلاميذ المسيح، لكل من اتبع الرب يسوع. يسوع أتى إلينا ليعيد صورتنا الأولى. عندما خُلق الإنسان على صورة الله ومثاله. خُلق على صورة الكلمة. في البدء كان الكلمة كما تعلمون، والكلمة كان الله. يُسمعنا بولس الرسول عن يسوع بأنه صورة الله غير المنظور وبكر كل خليقة، فإنه فيه خُلق كل ما في السماوات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رئاسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلق. يسوع هو صورة الله وفيه نحن خُلقنا. فعندما صار أمامنا لكي نتحوّل نحن ونصبح إلى الصورة التي فيه. الصورة الكاملة، الصورة الأساس، الصورة الحقيقية التي خُلق فيها الإنسان، خُلق عليها الإنسان.

الخطيئة شوّهته وما عاد الإنسان يستطيع أن يرى صورة الله في وجه الإنسان، لأن وجهه ما عاد يعكس قلباً يسكن فيه الله. ما عاد يطلّ علينا هذا الوجه حاملاً الصورة الأولى الأصلية، النقية. أتى يسوع ليعلمنا الطريق للرجوع إلى الله. أتى إلينا بوصاياه المقولة، بحياته التي عاشها فيما بين الإنسان، وكما قال يوحنا الحبيب في رسالته الأولى: رأيناه، لمسناه، أكلنا معه. أرانا طريق التوبة والرجوع، والرجوع يؤدي بنا إلى أن ننظر إلى الله وصورة الله تنعكس فينا. يتحوّل وجهنا إلى مجدٍ إلهي إلى نور إلهي. بمقدار ما ننظر إلى الله، بمقدار ما نرفع قلوبنا ووجوهنا إلى الله، بمقدار ما يتغيّر وجهنا إلى وجه إلهي. أتى إنسان، كان يعرف بأن يسوع كان يشفي المرضى، كان يُخرج الشياطين والأرواح الدنسة، يُخرج المرض والألم وكل ما في الإنسان هذا الذي يؤذيه. كل ما يؤذي الإنسان كان يسوع يُخرجه من داخله.

التلاميذ أُعطوا القوة، السلطان أن يُخرجوا الشياطين وهذا نراه في إصحاح سابق من إنجيل مرقس، عندما التلاميذ أخافوا الشياطين بعدما أعطاهم الرب سلطاناً نجده في الإصحاح السادس من مرقس. ونحن اليو قرأنا من الإصحاح التاسع. فهذا الإنسان الأب المتألم، الإنسان الذي يرى ابنه أمامه وفي كل مرة ينظر إليه يتألم، ينفطر قلبه ويتمزّق. أتى إلى يسوع وسجد أمامه قائلاً: يا معلم قد أتيتك بابني، به روح شرير، أبكم، لا نعرف من هو: يصرعه: فيصرف بأسنانه. هذا الابن الذي يتألم أمام والده. أتى هذا الإنسان وسجد أمام يسوع، وماذا قال ليسوع: سألت تلاميذك أن يُخرجوه فلم يقدروا. هذا الإنسان، كان يعتقد واعتقاده حق بأن التلميذ يكون كأستاذه. إن كان المعلم يستطيع أن يطرد الشياطين فتلاميذه يستطيعون. أجابه يسوع قائلاً: أيها الجيل غير المؤمن، إلى متى أكون عندكم، حتى متى أحتملكم. يسوع ينظر إلى التلاميذ، ولكن ينظر إلى كل إنسان كان مجتمعاً هناك

وقال لهم: أيها الجيل غير المؤمن. كما قال لليهود وكما نرنّم في الأسبوع العظيم. عندما قال يسوع بصوت المرنم، شفيتوا مرضاكم، أقمتوا أمواتكم، فعلتوا كل أمر جديد فيما بينكم، لماذا تصلبون؟

هنا يقول للتلاميذ وللناس جميعاً: ترون الأعمال العظيمة، ترون الأمور الإلهية، أنتم معي وأنا عندكم ومعكم وأنتم تنظرون ولكنكم شعب لا يؤمن، يأخذ ولكنه لا يشكر، لا يعترف بالفضل. وبعدئذٍ، يسوع تحنن على هذا الأب ولكن قبل أن يشفي الابن قال له هذا الأب: إن استطعت شيئاً فتحننٍ علينا وأغثنا. الأب يقول ليسوع، إن استطعت شيئاً. سبب هذه الإذا الشرطية هي التلاميذ. أي عندما نتكلم بالمسيح، نحكي بإيماننا ولا نؤمن حقاً، فنشكك الناس. عندما لاحظ هذا الأب بأن التلاميذ لم يتمكنوا، شك بقدرة المعلم. عندما التلاميذ لم يتمكنوا من مساعدة هذا الأب المفجوع، المتألم، ذهب عند المعلم وقال له بأن تلاميذه لم يقدروا فهل أنت تقدر؟ من حقه أن يقول ولكن السبب هم التلاميذ. لهذا نحن علينا أن نعي أنه قد يُلعن اسم الرب بسببنا.

إن استطعت أنت، تحنن علينا وأغثنا. قال له يسوع: إن استطعت أن تؤمن فكل شيء مستطاع. هذا الأب يقول ليسوع، إذا استطعت. أي هل أنت تملك القوة على شفاء ابني؟ فأجابه يسوع: أنا عاطيك القدرة بأن تؤمن أي عندك القوة على الإيمان، أنت عندك القوة أن تقول لهذا الجبل انتقل فينتقل. إذا كان عندك إيمان كحبة الخردل وهذا يعني أننا لسنا بمؤمنين. أنت عندك الإيمان وأنا عندي القوة. كما أنك أنت قادر أن تطلب وأن يُستجاب طلبك. إذا آمنت بي وصدّقتني، بالطبع أنت آت إليّ لأنك سمعت عني. إذا لم يكن إيمانكم قوي فهو باطل. نحن لا نقول لربنا إن استطعت ونأتي لعنده. نقول له بأننا نريد أن نجرّب. نذهب عند كل إنسان ونقول لماذا لا نأتي عند ربنا طالما نتحرّك في كل اتجاه.

عندما نصلي للرب نقول له: أنت قادر. إن أردت أن تشفيني، أن تطهرني فأنت قادر، ولكن أنا هي المصيبة. فأترجاك مثلما قال هذا الأب الطيب، قال له: أؤمن يا رب، وإلا لما أتيت إلى هنا، ولكن أعي إذا لم يكن إيماني كامل فأنت تُكمله. إذاً من له إيمان لا يقول للرب إذا كان بإمكانك وإذا لا فليس باليد حيلة. يقول له: أنا آتٍ إليك لأنك أنت خلاصي ونجاتي. إذاً هنا يا أحبة يوجد تحدّي كبير بتلميذ المسيح. أنا خائف على نفسي وعليكم لأننا نأخذ ربنا مثل حبة الدواء، هذا الذي يزيل القليل من الألم. نحن نتعاطى هكذا مع الله، لا نتعاطى مع الله بأنه إذا أخذناه فهو يغيّر حياتنا كلها. نحن لا نؤمن هكذا. لأنه إذا كنت تؤمن وابنك مريض فأصلي بإيمان وأقول فلتكن مشيئتك، وأنا أكون متيقّن من إرادة الله وهو يكون يختار لي الطريق الصحيحة ويطلب مني السير فيها. لكن لماذا لا نؤمن؟ لسبب علينا أن نعيه وهو عندما نأتي عند الله نقول له بأننا نحن الله وأنت عليك سماعنا. نحن نريد هكذا وإذا لم تنجح فهذا يعني بأنك لا شيء. لهذا السبب، لا أحد منا يأتي للصلاة ويقول له فلتكن مشيئتك، بل نقول له يا سيدنا، يا أبونا، لقد صليت كثيراً وزرت الكثير من الأديرة ولم تنجح. أخذت كل الأدوية ولم تنجح. الله دواء، بانادول. يسوع قال ستجلس عن يميني وعن شمالي ستموت. هذا الإله الموجود فيك عليك أن تدعسه، وتقول لي فلتكن مشيئتك. أنت ممكن أن تصبح قديساً أما إذا تابعت السير في طريق الشيطان ستظل شيطاناً.

إذا كان هنالك حفلة مهمة وقداس فيحتار هذا الإنسان بأي اتجاه سيذهب وماذا سيختار. المؤمن لا يملك الخيار هو يعلم طريقه وإلى أين عليه الذهاب. لماذا التلاميذ تمكنوا من طرد الشياطين والآن لم يتمكنوا والله منحهم السلطان أن يشفوا المرضى ... ؟ سألوه التلاميذ لماذا لم يتمكنوا؟ فأجابهم بأن هذا الجنس لا يخرج إلا بالصلاة والصوم. وهذا يعني أنه ليس أنتم من يُقيم المرضى ويطرد الشياطين، بل الله الذي تنظرون إليه في كل حين هو الذي يفعل، لكن المصيبة التي وقعتم فيها هي عندما نظرتم إليّ وتحدّثتم إليّ قدرتم على العمل. ولكن هذا ليس حق مكتسب. وكأن الرب يسوع يقول لهم بأنه عليهم أن يظلوا بعلاقة حميمة مع الله في كل حين، الصلاة من دون ضجر في كل حين، يجب أن يظل ذكر الله في قلوبنا وهذا الخط بيننا وبين ربنا. المؤمن يملك منذ زمن بعيد هاتف مع ربه ولكنه لا يستعمله.

ربنا يقصد بأن الخط يظل مفتوح بينه وبين المؤمن. إذاً يا أحبة، اليوم مثلاً أفكر بهذا الظلم الذي يحصل، تلك الوحشية بفلسطين، عندكم هناك وحش كبير، عندكم آلية الموت تجرف الدنيا، بالطبع الناس جميعهم شياطين لأن ضمير العالم مائت. هل عندنا إيمان أن ننظر لله بإيمان ونقول له يا رب فلتكن مشيئتك، وبالطبع مشيئة ربنا لا تريد الظلم ولا القهر ولا القمع ولا قتل الأطفال والنساء. قد نلتجئ لكل الأشياء ولكننا لا نلتجئ للصلاة بالإيمان العميق. ممكن يا أحبة أن يكون هذا ظرف لنصلي من أجل الأحبة الذين يتألموا. نحن نعرف ما معنى الألم. عشنا سنوات وسنوات حرب، أعتقد بأنه أصبح عندنا روح التعاطف. نرفع الصلوات من أجل أن يحتضن الرب الأخوة الفلسطينيين الذين يتألمون يومياً من وحوش ضارية، لا تعرف الرحمة ولا الشفقة. وكلهم يقولون باسم الكتاب المقدس. إذا كان الله يفعل هكذا فعلينا جميعنا أن نتساعد. ربنا الذي صُلب فهل يصلب؟ هذا الفرق بين إيمان الإنسان الذي يعرف يسوع وبين إيمان الإنسان الذي يجهله.

فيا أحبة، لا تشككوا الناس بيسوع. صلوا ليعطيكم الله الإيمان ويقوي إيمانكم ويشدّده ويجذّره لأنه إذا كان عندكم إيمان كما قال يسوع: إذا آمنت ترين مجد الله. لا وجود للفرح سوى بالإيمان وإلا يظل الإنسان ضائع. الله هو صخرتنا، الله هو مستندنا، الله هو الذي يرفعنا فوق كل ما ليس مفيد خير إلهي. صلوا ولا تملّوا لألا تدخلوا في تجربة وتتكرون المسيح. آمين.